امبراطور المانيا والحرب

(٣)

كان الامبراطور شديد العناية بصحته حتى في أثناء الحرب ومشاغلها الجمة فلذلك لم يهمل استانهُ يوماً ما بل كان يأتيني ايام الحرب لاطالجها كما كان يأتيني قبلها

اتهام البلجيك

في اوائل الحرب ابلغت ذات ليلة بالتلفون ان الامبراطور يريد مني ان ازورهُ لمعالجتهِ في قصرهِ في اليوم التالي. فعملت وبينا انا انتظرهُ في غرفة اعدّت لهذا الغرض اذا بباب الغرفة قد انفتح وبالامبراطور قد دخل وهو لابس حلتهُ العسكرية الجديدة فقال « صباح الخير يا دايفز هذه ايام عصيبة جدًّا أليست كذلك . أَلم تقرأ في الصحف عن معاملة البلجيكيين لجنودنا »

قلت « لم تمكني الفرص من قراءة الصحف اليوم »

قال « اقرأها ترَ فيها أن البلجيكيين يقوّرون عيون جرحانا ويشوهونهم تشويهاً فظيعاً . يبدون هذه الحرب حرباً حديثة متمدنة وهذه هي الوحشية بعينها. اؤمل ان يكون رئيسكم قد سمع بهذه الفظائع ودوّن خبرها في مذكراتهِ »

اما انا فلم يسعني انكارتهم الامبراطور حينئذٍ اذ لم يكن عندي ما استند اليهِ في انكارها ولكني علمت فيما بعد ان مراسلي اربع صحف اميركية قدموا المانيا وجالوا فيها من اقصاها الى اقصاها يجمعون الاشاعات والاقاويل المختلفة عن الحرب وانبائها فلما انتهوا من عملهم هذا بعد بحث طويل وجهد كثير لم يعثروا على حادثة واحدة تؤيد ما اتهم بهِ الامبراطور اهل البلجيك . على ان الصحف الالمانية الموعز اليها ما برحت تشيع هذه التهم يوماً فيوماً

والغرض من هذه الاكاذيب تهيئة الفظائع التي كان الالمان يرتكبونها لترويع سكان البلاد التي اجتاحوها . ولا ريب ان الامبراطور كان عالماً باعمال جنودهِ فأراد اذاً صاغية لهذه التهم دفاعاً عنهم

وفي اثناء مصلحتي له قال « كتبت رسالة عن استخدام البلجيكيين والفرنسويين لرصاص دمدم في هذه الحرب وسابعث بها الى رئيسكم . وعندنا براهين كثيرة تثبت هذه التهمة منها هيئة الجروح التي اصابت جنودنا وعثورنا في الحصون والقلاع التي استولينا عليها على خراطيش من هذا الرصاص لم تطلق بعد »

ومن غريب ما يذكر ان الامبراطور بعث برسالة الاحتجاج هذه الى الرئيس ولكن في اليوم الذي ارسل فيه الرئيس بواكنارده رسالة مثلها الى رئيسنا يحتج فيها على استعمال الالمان لرصاص دمدم

مسئلة الحياد

وبحثنا في مسئلة خرق حياد البلجيك فلم يستطع ان يؤيد ذلك الخرق بحجة واحدة معقولة. وعنده ان عزم المانيا على ان تدفع الى البلجيك اجرة السماح لها بمرور جنودها في ارضها يبرّر اغتصاب المانيا منها ما ابت بيعهُ بالمال. قال « ما أحمق البلجيك اذ اقدمت على مقاومتنا . فلو انها رضيت ان تتركنا نمرّ لكنا دفعنا عن كلّ شيء وما كانت شعرة من رؤوس اهلها تمسّ ولكان مركزها المالي يكون اليوم من الثقة مثل مركز لكسمبرج »

وفي حديث آخر قال لي ان اليابان خرقت حياد الصين بارسال جنودها الى ارضها لاحتلال كياوشاو. قال بلهجة الساخر « يجوز للحلفاء ان يأتوا ذلك ولكن اذا اتت المانيا مثلهُ صاحت انكلترا صيحة الغضب نصرة للحق . فيا للرياء . لقد وجدنا اوراقاً في بروكسل تدلُّ دلالة قطعية على انهُ كان بين انكلترا والبلجيك معاهدة سرية تجيز لانكلترا احتلال البلجيك اذا وقعت حرب مع المانيا . وهذه الاوراق عندنا في برلين . وليس بعد هذا البرهان برهان . فان البلجيكيين لم يكونوا سوى آلة بيد انكلترا »

من هم « الهون » (١)

« يقولون اننا نحن الهون . فلو ان توملث يروق ما فعل الروس في بيكوفينا

(١) يراد بالهون القبائل المغولية التي اجتاحت اوربا في القرن الرابع والخامس من التاريخ المسيحي وكان رائدها في حروبها سمك الدماء والنهب واشهر زعمائها اتلا . وقد سمى الالمان في هذه الحرب بهذا الاسم

وشرق بروسيا لعرفوا حينئذٍ من هم الهون الحقيقيون. فانهم خرّبوا كل ما وصلت اليه ايديهم. وبلغ من القوزاق في تخريبهم انهم لما دخلوا بعض اراضي الصيد التي لي في بروسيا الشرقية هتموا اسنان الخنازير البرية من رؤوسها المعلقة على جدران الغرف. وقطعوا بسكاكينهم اغطية كراسيّ التي هناك. وكانوا يحملون قنابل نارية يلقونها على الفلاحين المسالمين وقد صنعت في ايام السلم خصيصاً للنهب والتخريب. وكان اولى بنا ان نشنق جنودهم الذين اسرناهم كلهم بدلاً من ان نعاملهم معاملة اسرى حرب »

نهب رومانيا

مما يدلّ على ان الالمان بارعون في الاخذ لا في العطاء قصتان قصهما عليّ الامبراطور ووجهه يكاد يطفح سروراً. ولا يفهم هذا السرور الاّ الذين يعرفون ان لا شيء احبّ اليه من الاخذ بلا مقابل يعطيه

القصة الاولى — قال « طلبت رومانيا منا ذهباً بالحاصلات الغذائية التي تأخذها منا. طلبت ذهباً صرفاً ورفعت اسعار حاصلاتها الى درجة فاحشة. وكنا في اشد حاجة الى حاصلاتها فلم نرَ بدّاً من دفع الاثمان المطلوبة بها. ولكنها شهرت الحرب علينا حقاً وضلالة فاخذنا حاصلاتها كلها ولم ندفع بها شيئاً. ولما كلمت هتندنبرج في امر محاربة رومانيا قال « ستكون الحرب معها لذيذة جداً » وقد كانت كذلك لاننا اخذنا كل ما نريد ولم ندفع ثمناً »

القصة الثانية — قال « لما دخلت الجنود الالمانية ترنابول (روسيا) غنمت مقداراً كبيراً من ادوات المستشفيات ومهماتها وكلها من صنع اميركا. ولما رآها اطباء الجيش كنت تراهم يتبخترون كأن العالم كلهُ ملكهم. وذات يوم قابل جماعة من اليهود طوال الشعور كثيري الادهان احد ضباطي مدعين ان هذه الادوات والمهمات ملكهم وانهم ابتاعوها بمالهم فاذا صودرت وجب ان يدفع اليهم ثمنها. فقال لهم الضابط « هل دفعتم ثمنها عند شرائها » . فاجابوا « كلاّ بل كتبنا على انفسنا سنداً بها » . قال « اذا طلب منكم دفع قيمة السند فاننا نحن ندفعها. ولكننا في اثناء ذلك نستولي على الادوات » . والخلاصة اننا استولينا على كثير من الاربطة وانواع المعدات المختلفة ولم ندفع بها ثمناً »

بلونات تسبلن والمدن غير الحربية

من رأي الامبراطور ان اطلاق قنابل البلونات على باريس ولندن وغيرهما من المدن غير الحربية جائز لان انكلترا تحاول تجويع المانيا كلها . فقلت لهُ ان الالمان حضروا باريس سنة ١٨٧٠ وجوّعوا اهلها . فقال على الفور « ان بين الحادثتين بوناً شاسعاً فاننا حصرنا مدينة واحدة سنة ١٨٧٠ بعد ما امهلنا اهلها مدة طويلة لمغادرتها . اما انكلترا فتحصر امة برمتها وتحاول تجويع النساء والاولاد الذين لا يد لهم في الحرب »

حرب الغواصات

انكر الامبراطور بتاتاً ان اغراق الباخرة لوزيتانيا كان بامر خاصّ منهُ الى قائد الغواصة التي اغرقتها ولكنهُ لما بحث معي في حرب الغواصات قال « اني حقّ للاميركيين في ركوب امثال هذه الباخرة . لو انهم زاروا ميدان القتال ينتظرون منا الكفّ عن اطلاق المدافع . فلم ينتظروا منا ان نكون اكثر عناية بهم واهتماماً بوقايتهم وهم يدخلون منطقة القتال بحراً . لا تنس ابداً ان رصاصة من مسدس كافية لاغراق احدى هذه الغواصات فكيف يتسنى لنا ايقاف البواخر والصعود اليها لتفتيشها لنعلم هل هي محايدة ولا تحمل بضاعة حربية . فاذا بان ان الباخرة التي كنا نظنها محايدة هي في الحقيقة محاربة واذا امرنا باخرة محاربة بالوقوف لتفتيشها فاطاعت الامر فكيف نأمن على رجال غواصاتنا منها وطلقة بندقية من الباخرة ترسل الغواصة الى قاع البحر . فواضح من هذا انهُ اذا اصرت اميركا على ارسال الذخيرة الى الحلفاء فلا مناص لنا من اغراق البواخر »

فقلت « لا ريب ان ضعف الغواصات في حدّ نفسها يقلل قيمتها من حيث حق التفتيش الذي للمحاربين بموجب القانون العام ولكن يجب المحافظة على هذا القانون » . فقال على الفور « القانون العام — لقد زال هذا القانون ولم يبقَ لهُ اثر »

وفي قولهِ هذا جواب جميع المسائل التي سئلت عن سير الحرب . فاذا كان الالمان لا يعرفون قانوناً عاماً بل يسترشدون بما يرونهُ ملائماً لهم وبما يطلبهُ التهذيب (Kultur) الالماني منهم فان مجرى الحرب كلهُ بات واضحاً لا مجال

للغموض والابهام فيه . فاستعمال الغازات السامة وتخريب المدن غير الحصينة وامتهان الكنائس ومهاجمة المستشفيات والفظائع الكثيرة التي ارتكبت ضد غير المحاربين واسرى الحرب — هذه كلها باتت مفهومة ما دام القانون العام قد زال من الوجود

امير الحرب والسلم

ان آلة الحرب العظيمة التي بناها الامبراطور واتقنها في الست والعشرين سنة الماضية من ملكه « لحفظ السلام » كما كان يقول — هذه الآلة ما فتئت منذ بنيت تتطاول الى الحرب . وكان رجال الحرب من الالمان لا ينكرون على الامبراطور تمثيل دور « امير السلام » في خلال استعدادهم للحرب والمناداة بذلك على رؤوس الاشهاد آناً بعد آن . ولكن كثرة ترديده للقول ان غرضه الوحيد من جيشه العرمرم واسطوله الضخم انما هو حفظ السلام اقلقت بال حزب الحرب الالماني حتى باتوا يخشون ان الامبراطور جادٌّ في قوله

ومن اشدّ الضربات على حزب الحرب هذا اخفاق التدابير والدسائس التي دبرها لاثارة الحرب سنة ١٩١١ على مسئلة المغرب الاقصى . وكان سبب هذا الاخفاق احجام النمسا عن تأييد المانيا . نعم ان رجال الحزب المذكور كانوا يعتقدون ان المانيا تستطيع وحدها الوقوف في وجه اوربا كلها ولكنهم لم يشاؤوا تعريضها لنار الحرب من غير ان تقف النمسا بجانبها وتدعمها . وعليه رأوا ان ينتظروا حتى تُكرَه النمسا على الحرب اكراهاً . فلما ضمت النمسا ولايتي البوسنه والهرسك الى املاكها لم تلبث المانيا ان وافقت على هذا الضمّ اعتقاداً منها بأن هذه الموافقة تجرّ النمسا بسهولة الى الحرب التي كانت المانيا تعدّ العدة لها وتروم اقامة سوقها في الفرصة الملائمة

قتل ولي عهد النمسا

وقد وجدت المانيا هذه الفرصة في مقتل الارشيدوق فرنسيس فرديناند ولي عهد النمسا وقرينته في ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ فاتخذته عذراً للحرب التي كانت تدبرها ورأت ان النمسا اذ ذاك اكثر شوقاً الى هذه الحرب منها . ولكني اعتقد انه لو تنكب الامبراطور فرنسيس جوزف الحرب وابت النمسا الاقتصاص من

الحرب على قتل وفي عهدها ما كان امبراطور المانيا يدع هذه الفرصة السانحة تمرّ من غير ان يغتنمها. ذلك لان قتل ولي العهد أصاب من الامبراطور مقتلاً فان الامبراطور يقدّس المبدأ الملكي تقديساً حتى بات اعز المبادىء عنده واحبها اليه . وكان يشعر بانهُ كفيل الحكم الملكي كما تشعر اميركا مثلاً بانها كفيلة الدمقراطية . وكلّ طعنة توجه الى عرش من العروش فانما تخز قلب الامبراطور في سويدائهِ . وعليهِ أرى انهُ كان ينتقم بتصميم لجناية قتل ولي العهد نصرةً للحق او لم تنصرهُ .

وجميع حركات الامبراطور وسكناتهِ تدلُّ على شدة تعلقهِ بالمبدإ الملكي واستظلاعهِ لروح الدمقراطية. اجتمعت بهِ بعد انتخاب ولسن لرياسة الجمهورية سنة ١٩١٢ فسألني ساخراً « وماذا عسى اميركا ان تصنع وعلى رأسها استاذ . اعلم يا دايفز ان بلادكم لن تصير عظيمة بالحق حتى تصير ملكية »

انكلترا جمهورية

وقال لي مرة من حديث « انظر الى انكلترا اليوم — حاكمها لويد جورج الاشتراكي . وهي في الحقيقة جمهورية مثل جمهورية فرنسا سواء . وماذا جرى على انكلترا. لسنا نسمع عنهُ شيئاً . فلم لا يظهر نفسهُ ويؤيد شخصيتهُ ». وكانت لهجة المرارة والمقت التي اظهرها وهو يقول هذه الاقوال اشدّ دلالة من الاقوال نفسها

وبعد نشر جواب الرئيس على البابا اجتمعت بهِ فقال « ان رئيسكم يروم انزالي انا واسرتي عن سرير المانيا بمذكراتهِ . ولكن قد لا يخطر لهُ ببال مبلغ ولاء قومي لي وان مساعيهُ عديمة الجدوى . فقد عقدوا الاجتماعات حديثاً في كل مدينة وقرية من الامبراطورية واعربوا عن ولائهم واخلاصهم لي بطريقة لا يتمشى الريب اليها . وبذلك اجابوا رئيسكم الجواب الذي يستحقهُ » . ولست ادري هل كان الامبراطور يجهل حقيقة ان تلك الاجتماعات كلها موعز بها من الحكومة على لسان الصحف او كان يتجاهل ذلك تجاهل العارف ويبدي مقدرتهُ الفائقة على تمثيل الادوار المختلفة كما اشتهر عنهُ في جميع اعماله

تقديم القديم على الجديد

اشرت غير مرة الى التماثيل التي نصبها الامبراطور لاسلافهِ في شوارع برلين

ليعرب عن احترامه لهم وليبث في صدور قومه الاعجاب بملوك العهود الماضية . وما زال منذ تولّى الحكم يرمم القصور القديمة ويبدي احتقاره لكل شيء جديد في الفنون الجميلة والموسيقى. وافق مرة على تعيين رتشرد ستروس الموسيقي الحديث الشهير مديراً لاوبرا برلين. ثم لما رأى فيما بعد ان هذا النابغة الف ونظم روايات حديثة المغزى ساءهُ ذلك فقال « لقد ربيت افعى في العشب لتلدغني »

معاملة الاشتراكيين

المانيا مهد الاشتراكية ولكن الاشتراكية في نظر الامبراطور سرطان ينخر اسس امبراطوريته فلذلك كثر تطيرهُ منها واشتدّ قلقهُ من تقدمها . ولطالما رفض قبل الحرب مقابلة وفود الاشتراكية واستقبال زعماء حزبهم في مجلس النواب . ومعلوم ان هذا المجلس ليس اكثر من جمعية يتناقش اعضاؤها كما يتناقش الاولاد في جمعياتهم اللعبية ولكن لم يسع احداً من اهل الشان تجاهل الحزب الاشتراكي الذي في المجلس وغضّ الطرف عن نموه وازدياد قوته وصخبه الدائم مطالباً باصلاح الانتخاب. ولا ريب ان ذلك كان سبباً كبيراً من اسباب اهتمام الحربيين بان لا تؤجل الحرب كثيراً . على انهُ بعد ان صدر الامر بتعبية الجيش قرر الامبراطور ان يتنازل عن موقفهِ بعض الشيء فوقف على شرفة قصره والجماهير مزدحمة امامهُ وقال « لست اعترف بحزب من الاحزاب انما نحن الآنَ جميعاً جرمان »

ولا ريب ان من اهم الاغراض التي كان الامبراطور يرمي اليها بالانتصار في هذه الحرب ضرب الاشتراكية ضربة قاضية . فقد كان يرى ان النصر يجعل جيشهُ معبود الامة وانهُ هو يتلألأ مجداً بالنور المنعكس عن اعمال الجيش الباهرة . وخيل اليهِ ان هذا النصر يرجع الاشتراكية مئة سنة الى الوراء

الثورة الروسية

على انهُ بينما كانت جيوش الامبراطور تنتصر في الميادين كان المبدأ الذي يقاومهُ ينتصر ايضاً في كل مكان. ففي ١٥ مارس سنة ١٩١٧ تنازل قيصر روسيا عن سريره وتحولت حكومة روسيا المطلقة التي طالما كانت موضع حسد الارستوقراطية الالمانية الى جمهورية .قال لي الامبراطور ذات مرة « ان انكلترا

هي التي هدمت الامبراطورية الروسية لانها خشيت ان يستقل القيصر صلحاً منفرداً . وواقع الامر انهُ لا القيصر ولا حكومتهُ فاتحان في هذا الموضوع . ولكن انكلترا بثَّ الملكية من روسيا قاومت نفسها بنفسها اذا رتبي القيصر على سرير روسيا لبقي يحاربنا فيمن يرجح »

ملكة اليونان

ولما عقب تنازل ملك اليونان تنازلَ قيصر الروس جاءَ ضربة على الامبراطور اكثر ايذاءً لهُ من انكسار احد جيوشهِ . وقد علق عليهِ بقولهِ « يحاولون اكراه اليونان على قبول شكل الحكومة الدمقراطية الفاسد الذي لهم . والاسلوب الذي عاملوا بهِ شقيقتي الملكة اليونان انما هو عار عليهم وشنار . فانك تسمعهم يحدثونك بغارتنا على البلجيك ولكن اعمالهم في اليونان شرٌّ من ذلك . وقد درست اخلاق الامة الانكليزية خمساً وعشرين سنة فالفيت شيمتهم ستر اعمالهم بستار الدين والتحدث بخير الحضارة وبني الانسان ولكنهم جعلوا ديدنهم مع هذا كلهِ اغتصاب كلَّ ما تصل اليهِ ايديهم »

وقد ادرك بادئ بدء ان لا غنى لهُ عن النصر ليحفظ عرشهُ . قال لي مرة ان بلادكم تروم تحويل المانيا جمهورية كفرنسا حتى تبقى في هبوط دائم كلَّ يوم يحكمها رهط من المحامين . وان بلداً يبيت في ايدي المحامين لبلد يؤسف عليهِ . فان معظم رجال الحكومة الفرنسوية والايطالية منهم . واميركا وانكلترا تحذوان حذوهما مسرعتين »

الصلح الالماني

والامبراطور يحسب الشعب الالماني ملكاً يتصرَّف فيهِ على هواهُ . فكان في اثناء احاديثي معهُ اذا ذكرت « الشعب الالماني » يصاح لي هذا الخطاء بحسن ذوق اذ يقول « شعبي » . قلت مرة « فهمت من جلالتكم ان الشعب الالماني مشوق الى الصلح » فقال « نعم يا دايفز ان شعبي مشوق الى الصلح كل الشوق ولكنهُ يريد صلحاً المانيًّا لا صلحاً كما يروم الحلفاء »